مرحلة الانطلاق

يكاد يتفق الدارسون على أن مرحلة الثمانينيات هي المنعطف الحقيقي في مسار الرواية السعودية، فينسب إليها ظهور الرواية الحديثة متأثرة بالمتغيرات الكثيرة في حياة المجتمع السعودي، من بينها انفتاح التعليم على فضاءات ثقافية متنوعة عربية وشرقية وغربية، صُبَّت كلها داخل وعي الفرد، الذي أفرز بدوره إبداعا ينتمي إلى مدارس متعددة، واكبته حركة نقدية اتبعت طرائق ومناهج ومدارس حديثة، ففي عشر سنوات - أي من عام 1980 وحتى 1989م - صدر ما يقرب من تسع وعشرين رواية لسبعة عشر روائيا وروائية، لعل من أبرزهم: محمد عبده يماني، وسلطان القحطاني، وأمل شطا، وعصام خوقير، وحمزة بوقري، وعبدالله جفري، وعبدالعزيز الصقعبي، وعبدالعزيز مشري، إضافة إلى إبراهيم الناصر الحميدان. ويُعد عبد العزيز مشري وعبد العزيز الصقعبي وحمزة بوقري وسلطان القحطاني من الأسماء التي قدمت تجاربها الأولى الفارقة في الفضاء السردي السعودي، واحتفظت بزخمها إلى وقت متأخر؛ حيث تناولتها الدراسات والقراءات المتنوعة، فعبد العزيز مشري قدم صورة العلاقة المأزومة بين المدينة والقرية، بينما قدم الصقعبي في (رائحة الفحم) للرواية الشعرية، كما اهتمت روايته هذه بالشكل كثيرا، وقد لا يجافيني الصواب إذا قلت بأنها تعد بداية للرواية الحديثة في السعودية، حيث خرجت عن تقليدية الفكرة والشكل، وناقشت قضايا مهمة في المجتمع بشكل غير مباشر وبعيد عن التقريرية، وقد فطن لذلك بعض النقاد والدارسين الذين أشاروا إلى خروجها عن المصير الجماعي لتأتي باتجاه مختلف عن السائد بطرحها الذاتي الوجداني الذي لا ينفصل بدوره عن الجماعة، وإنما يتحرك من داخلها لا معها، في تأكيدها لأزمة المبدع أو الفنان ومن ثم المرأة، وحاول بعضهم فيما بعد التماشي مع هذه النزعة، فلم ينجح منهم إلا القليل، كما استخدم الصقعبي في هذه الرواية - ولأول مرة في الرواية السعودية - بعدا سينمائيا من خلال استخدامه لأسلوب القطع السينمائي الذي تُوَظَّف فيها المشاهد لتفضي إلى مجموعة من الدلالات.

مرحلة الأزمات الصعبة:

تمخضت حرب الخليج الثانية عن خلخلة في مجموعة المفاهيم وضعضعة في القيم بما في ذلك الهوية، وما اتجاه أدب هذه المرحلة إلا تعبيرا عما تستبطنه التجربة المرة التي طالت المجتمع السعودي، فنبتت على خلفيتها مجموعة من الأسئلة، دفعت بكثير من الشباب للتخلص سريعا من أنماط التعبير السائدة والبحث عن إجابات مبصرة عن حقيقة الأشياء من حولهم ومدى صلاحيتها لهم؛ لذلك حانت مرحلة الكشف بعين مبصرة وإرادة قاهرة لكل العقبات التي كان من أهمها الخوف؛ لذلك ابتدرت هذه المرحلة برواية (شقة الحرية) للدكتور غازي القصيبي ورواية (العدامة) للدكتور تركي الحمد، اللذين عبرا عن الحياة بطريقة إسقاطية تنبعث من الماضي بما يشبه الاعتراف أو المكاشفة، ومع أن هاتين الروايتين الممنوعتين حينها لاقتا رواجا كبيرا بين الشباب، إلا أن ثمة شبهات لحقت بهما من حيث المضمون والشكل. ثم عبده خال في (الموت يمر هنا)، وبعدها برزت أسماء روائية شابة مثل: عبد الحفيظ الشمري، ومحمد المزيني، وعبد الله التعزي، ومحمد حسن علوان، ويوسف المحيميد، إضافة إلى حضور المرأة بصفتها الروائية، مثل: رجاء عالم، ونورة الغامدي، وليلى الجهني، ومها الفيصل، ونداء أبو علي، ورجاء الصانع، وبدرية البشر، وأميمة الخميس، مع اختلاف في طرائق الكتابة، حيث لم تعد تُعنى بتسلسل الأحداث أو حتى رسم الشخصيات أو المكان أحيانا بقدر عنايتها بالمونولوج الداخلي والعمق الفلسفي واللغة الخاصة التي أحيانا ما تزاحم الأحداث وتخرجها عن سرديتها السلسة..

ويعد الشمري عند بعض النقاد في روايته (فيضة الرعد) التي أصدرها عقب عدد من المجموعات القصصية، فاتحة للمرحلة الحديثة الثانية في تاريخ الرواية السعودية التي دشنت فنيا برواية (رائحة الفحم) لعبد العزيز الصقعبي، ليدخل منافسا قويا لأسماء سابقة له في هذا المضمار، مثل: غازي القصيبي، وعبده خال، وتركي الحمد، والدميني، وهي أسماء جاءت بروايات تقترب من الذات. وكان اجتراء الشمري على هذا الفضاء مغامرة لذيذة نقضت تجارب سابقة في البنية والشكل؛ لذلك جاءت غريبة عنها مما أثار حفيظة الكبار محاولين دحرجتها عن عالم الرواية دون جدوى، إذ سريعا ما أخذ مكانه الطبيعي ولاقت تجربته إقبالا من جيل الشباب فتأثروا بها. ومنذ البداية تقف الرواية إلى صف غزالة، ناسجا ذاك الصراع المجتمعي بلغة فياضة بالمشاعر أحكم سيطرته عليها، فلم يكن السرد يتجه منحدرا من نقطة معينة، لذلك بدا الزمان مسكونا في رحم المكان العاج بكل الاحتمالات والمفاجآت، وهذه التقنية الجديدة التي طالعنا بها عبد الحفيظ الشمري في (فيضة الرعد) ممسكا بخيطه السردي بإحكام حتى في لحظات اللذة الحميمة، مما جعل النص يعبر عنها باحترام كامل لذائقة المتلقي، كما خرج بنا من ذاتية الأشخاص إلى ذاتية المكان. ولا يفوتني التنويه إلى تأثير كتاب المغرب العربي خصوصا الجزائريين الذين كان لهم دور في تطعيم الذائقة الروائية السعودية كالطاهر وطار، وأحلام مستغانمي، وكاتب ياسين، وواسيني الأعرج، ولا أبالغ إن قلت إن واسيني الأعرج تحديدا يجد لدى السعوديين مقروئية عالية، حتى أن الروائي الذي لم يقرأ له (سيدة المقام) أو (حارسة الظلال) أو (ذاكرة الماء) أو (كتاب الأمير) يعد جاهلا بالرواية العربية الحديثة؛ لاستخدامه طرائق تعبيرية جديدة، ولغة فائقة الجودة تميزه عن غيره. أما أحلام مستغانمي فقد انطبعت في نصوص كثير من الشباب المتطلعين لشعرية اللغة وحميمية القلب.

الجيل الجديد:

يطلق على هذا الجيل، جيل ما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، هذه الحادثة العالمية التي أعلن فيها عن تورط عدد من الشباب السعودي فيها، فألحقت وصمة عار بمجتمعاتنا الإسلامية والعربية، بينما هي حقيقة أعادت إلى أذهان الشباب فكرة المستحيل الممكن، وأخرجتهم من التقوقع العاجز على الذات إلى فضاء أرحب، وكما يقال «رب ضارة نافعة»، فكان للإبداع السردي نصيب كبير منها حيث تحفز الشباب لتناول المرحلة بكل أبعادها الوجدانية والذاتية، حتى اندمجت تقريبا معها معالم الفنون الأدبية المختلفة من شعر وخاطرة وحكاية ومونولوج مليودرامي، وهنا تستوقفني تجربة جديدة في عالم الرواية لقاص عتيد آمن بالقصة القصيرة حتى الثمالة، ثم نراه يقع في غوايتها ويكتبها شعرا، وهو القاص والببليوجرافي الأستاذ خالد اليوسف في روايته (وديان الابريزي) وهي عبارة عن تدوين نصوصي يلامس الشعر، ويعزز موقف الشاعرية التي تتناهب الموقف بين رجل وامرأة يتجاذبان سيرة الحياة، ليحاول كل واحد منهما أن يثبت للآخر أنه على وعي مناسب يؤهله أن يقيم الواقعية. والجديد في الرواية - وهذا مربط الفرس - أنها تعمد إلى الرسائل، والمعابر الوجدانية التي تفضي إلى التدوين، وإلى مزيد من التساوقات اللفظية التي تنبني على ما تملكه المرأة من عاطفة تجاه الرجل حينما تقع فريسة للعاطفة، وتتناهبها حالة الوجد اللاعج، فيما يحاول الرجل أن يبني مطارحاته على أسس خطابية عقلية تمتزج بالعاطفة، رغبة منه في أن يصل إلى القارئ، ويقدم رؤية متكاملة عن أبرز ما يشغل النفس البشرية.

هذه الخصائص الجديدة للرواية السعودية كَثُفَ حضورها بأشكال مختلفة، فدفع بالشعراء والنقاد وكتاب القصة وحتى الحرفيون من الشيب والشباب، ذكور وإناث إلى بوابات دور النشر الخارجية والداخلية، لنشر أعمالهم، حتى حارت عقول النقاد في فرز الأصلح منها ليسجل الرقم (580) رواية بحسب إحصاء الأستاذ خالد اليوسف الببليوجرافي، وهو العدد الكلي للروايات السعودية الصادرة منذ العام 1930 حيث بلغت إصدارات عام 2010م وفق إحصائية اليوسف (84 رواية)، ومع منتصف هذا العام 2011م بلغت (56 رواية)، ومن المتوقع أن تصل مع نهاية هذا العام إلى مائة رواية، وبهذه الكميات يكون عدد ما صدر حتى الآن من نتاج روائي سعودي (720 رواية)، أو يزيد! فماذا يعني ذلك؟ هل هو محاولة للتعبير عما يختلج في عقول الناس؟ هل للفضفضة دور فيها؟ هذا ما لا يمكن الإجابة عنه الآن على الأقل، ولكن من المؤكد تماما أن معدلات نمو التعليم في المملكة العربية السعودية قد بلغت أوجها، وأن الانفتاح على الثقافات الأخرى غدا أمرا يسيرا من خلال وسائل الاتصال الحديثة وعبر الاتصال المباشر أيضا، وهذا مؤشر قوي على أن بنية المجتمع السعودي الفكرية أصبحت أيضا مختلفة عن أنساقها القديمة، ربما كانت الرواية الطريقة المثلى لقول ما سُكت عنه في زمن ماض، فظاهرة كتابة الرواية في المملكة العربية السعودية تعد ظاهرة غير عادية، وتستحث الباحثين والدارسين والنقاد لدراسة مضامينها، واتجاهاتها، وطرائقها الفنية، وكتَّابها وكاتباتها، فالرواية في المملكة العربية السعودية تستحق النظر بتأمل، خاصة أن القراء العرب - بعد انتشارها وتواصل صدورها - أصبحوا في حالة ترقب لها، وأسهم النشر الخارجي بصورة كبيرة في خلق هذه المساحة الكبيرة التي وصلت إليها.

التتويج:

حظيت الرواية السعودية بعد رحلة زمنية طويلة بتتويج مدرستين فذتين في الفضاء السردي السعودي، وهما (عبده خال) و(رجاء عالم) اللذان فازا بجائزة البوكر العالمية لعامين متواليين، ولهذين العلمين زخمهما الخاص وطرائقهما الخاصة في الكتابة، فعلى الرغم من ولوج (عبده خال) في صميم المجتمع الواقعي المسحوق، وتقديمه بتفاصيله الدقيقة، إلا أنه استخدم الصورة اللغوية الخاصة به التي التصقت في ذاكرة القراء كـ»الموت يمر من هنا» و»الطين» و»الأيام لا تخبئ أحدا» وأخيرا «ترمي بشرر» التي جاءت مستفزة لما استبطن في الوعي الجمعي وأضمرته الذاكرة الشعبية، وبلغة خاصة وعبر صفحات طويلة قدم معاناة الإنسان بكل حالاته، لذلك جاءت الرواية راشحة بالوجع والهم. هاتان الثيمتان اللتان لا تنفكان عن قلم عبده خال.

أما (رجاء عالم) الفائزة بجائزة البوكر لهذا العام مناصفة، فلا يمكن أن يجاريها كاتب في قدرتها على ولوج الفضاءات الغنوصية، الأسطورية وهي تنسج عالمها من خيوط رقيقة جدا وشفافة لا يمكن أن تتجلى لغيرها، حيث استلهمت المجتمع المكي الداخلي وقدمته بلغة متساوقة مع غنوصية المعنى، لذلك استقلت بمقروئية خاصة، مبتعدة عن القارئ الباحث عن متعة ناجزة، مستخدمة في ذلك مهملات التراث العربي الاجتماعي واللغوي؛ لذلك استحقت الفوز عن روايتها (طوق الحمام) بجدارة.

رواية الحمام لا يطير في بريدة

عبرت رواية: ” الحمام لا يطير في بريدة “ ليوسف المحيميد، من إصدار المركز الثقافي العربي، كأحد الروايات عن معنى الدين والجنس بشكل أخص في البيئة المحلية السعودية ، وكان لها رواج كبير وقت صدورها .

كتبت الرواية في 360 صفحة من القطع المتوسط ، ونفذت النسخ في الأسبوع الثاني من المعرض قبل أربع سنوات .

للمؤلف عدد من الروايات:

فخاخ الرائحة ترجم لثلاث لغات

القارورة

نزهة الدلفين.

المؤلف يميل إلى استصناع صورة في ذهن القارئ عن المجتمع ، صورة مختنقة تثير الاشمئزاز عن التدين الذي يقتل الحب، ويجعل الحياة مللاً لا قيمة لها .

يبرهن المؤلف على فساد الدين والتدين بسياقات مختلفة في أماكن متعددة،الفكرة الأخرى في الرواية هي الجنس.

أما السياسة فهي الأقل شأناً في الرواية وجاءت بإشارات عابرة ،فالسياسي على ما يبدو هي الجانب الذي يجب الحذر من الحديث عنه أو مساسه في عامة الروايات السعودية بأية إساءة .

في الرواية صور يؤكد بعضها بعضاً في تحديد ظاهرة التدين المتخلف في المجتمع.

كما يلي:

1 ـ جهاز الهيئة بتلك الهيئة المتخلفة الذي قبض على فهد وطرفه في ستار بوكس . رغم عدم وجود أي سلوك ظاهري في المقهى يدل على الشك فيهما إلا أن المشكلة في تواطؤ خارجي قاد الهيئة للمقهى .

فهو يجعل مقابل الفعل الصغير عقوبات تحطم شخصية الفاعل وتقضي على كل طموحه ، وتجعله رهناً للإحباط والحياة البائسة من قبل أجهزة الشرطة الدينية ، وينتقل المؤلف بعد أن يتوقف عند كل مقطع إلى صور من الغلو والتشدد، يعين القارئ فيها على الخروج بصورة قاتمة وليست موقف الهيئة فقط بل الهيئة هي منتج نهائي للتخلف والتسلط.

2- في سياق سردي آخر عن التشدد : يسمي أهل بريدة الدرجات الهوائية بحصان إبليس، وبعضهم يخفي المذياع.

3- يبلغ الاختناق مداه وهم يقاومون مكبر الصوت فهو بدعة استوجبت قصفة ببندقية سكتون.

4- صورة أخرى يعرضها المؤلف في طريقة المتشددين في حكمهم على الأشياء واستجلاء الحقائق، فهم بمجرد مخالفة القول السائد، ودون مناقشة أو استيضاح، تبدو الأحكام جاهزة لديهم بالتبديع ومن ثم تكون النصيحة باتباع رأي متشدد آخر، فحين سئل أحد الشيوخ تلميذه عن رأيه في كروية الأرض، أجاب بجواب يختلف عن السائد العام.

5- قصة أخرى يحكي فيها المؤلف أن وفداً من أهالي بريدة ذهبوا للملك فيصل ونصبوا خيمة أمام القصر منكرين عليه فتح مدرسة للبنات .

6- ينتقل المؤلف إلى مشهد أكثر صخباً، حيث يروي تفاصيل حادثة اليمامة التي وقعت أحداثها في الرياض ، ففهد وسعيد صديقان قررا أن يذهبا لمشاهد المسرحية وسط بلا وسطية، التي استعد لها “السرورية” “والإخوان” كما جاء على لسان المؤلف استعدوا لها بالأحذية والتخريب.

7- انتقل المؤلف بعد ذلك إلى التركيز على الفكرة الأخرى وهي الجنس. وفيها يصف جسد المرأة من خلال علاقات الحب واللقاءات والخلوات والوصف الدقيق للأماكن التي تلتقي فيها شخصيات الراوية.

تكرر فكرة التماس مخرج لتلك العلاقات بين الجنسين كانت في كل صور العلاقات بين الجنسين، وبين النوع الواحد، فكل علاقة تكونت كانت بدافع ويسوق هذا الدافع على القارئ في سياق محزن ومتلبس دائماً بحالة ظلم وقهر وتخلف وتشدد ديني وترصد تتعرض لها شخصيات الرواية ففهد وسعيد ونهى وطرفة وثريا ووفاء ليسوا إلا ضحايا .

السياسة :حاول المؤلف رسم صورة عن الحريات والقمع الأمني من خلال أحداث مكة وجهيمان ، ومن خلال التعامل الأمني مع الجماعات الدينية وبإشارة عابرة وبسيطة عن التعذيب ، ومن خلال اللغة الساخرة المفرطة كما في مشهد طرفة التي يسميها المؤلف ملكة الأزمات والمآسي فهي حين تشاهد فهد مكتئباً حائراً فتقول له : ” ابتسم أنت في مملكة الإنسانية “

وبلفتة سريعة يتحدث المؤلف بلغة ساخرة عن طاعة ولي الأمر ، ثم بلفتة أخرى يتحدث المؤلف وهو يعرض لصورة المجتمع المتخلف الذي يدمر الحياة والحب واللهو البريء، لا يتحدث عن المجتمع المتحضر في حقوق الناس في الدفاع عن أنفسهم والتشريعات القانونية التي تكفل لهم الحقوق.